فى مزارات الاسكندرية

للدكتور عبد الوهاب عزام

« بقية المنشور فى العدد ٣٣٤ »

سرنا إلى جامع البوصيرى وهو من أجمل المساجد وأحبها إلى نفسى لا يمل زائره الجلوس فيه يقلب الطرف فى جوانبه ويرى البردة منقوشة على أربعة جدرانه فى إطار واحد، ويرى بين الحين والحين زرقة البحر والسماء فيطلق فكره من المعبد الصغير إلى المعبد الأكبر بين لجة الماء ولوح الجو

ذكرنا هناك المحدث الأديب الشاعر شرف الدين محمد بن سعيد البوصيرى صاحب البردة والهمزية القصيدتين المباركتين اللتين خلدتا صاحبهما وخلدتا فى صفحات الدهر وتالتا من الحفظ والإنشاد والكتابة والنقش والتذهيب والتحلية ما لم ينله شعر آخر فى الجاهلية والإسلام

وجلسنا فى الإيوان المشرف على الصحن جلسة خفيفة أنشدنا فيها الشيخ الخالدى هذه الأبيات :

أما المحبة فهى بذل نفوس ... فتنعمى يا مهجتى بالبوس
بذل المحبّ لمن أحبّ دموعه ... وطوى حشاه على أحر رسيس
شرفاً لشاذلة ومرسية سرتْ ... لهما الرياسة من أجلّ رئيس
ما إن نسبت إليهما شيخيهما ... إلا جلوتهما جلاء عروس

وليست هذه الأبيات غريبة فى مسجد البوصيرى، وإن لم يذكرنيها، فهو تلميذ أبى العباس المرسى. وأبو العباس تلميذ الشاذلى

وأبو الحسن الشاذلى هو الشريف تقى الدين على بن عبد الله بن عبد الجبار شيخ الطريقة الشاذلية . كان عالماً واسع العلم وبلغ الدرجات العالية فى التصوف وتوفى بصحراء عيذاب متوجهاً إلى مكة فى ذى القعدة سنة ٦٥٦ ونسبته إلى شاذلة إحدى قرى تونس

وأردنا أن نزور قبر الشاطبي الذى ينسب إليه حى الشاطبى فى رمل الاسكندرية فقيل لنا إن قبره قد اشتملت عليه العمارة الشاهقة التى شادتها جمعية العروة الوثقى هناك

وهذا الشاطبى غير صاحب الشاطبية ، ولكنه من رجال القراءات كذلك ذكره السيوطى فى حسن المحاضرة فى عداد من كان بمصر من الصلحاء والزهاد والصوفية . وقد كتب لى العلامة الشيخ الخالدى ترجمته من كتاب «الزهر المضى فى مناقب الشاطبي » وهأنذا أثبتها هنا :

«أبو عبد الله محمد بن سليمان المعافرى الشاطبى نزيل اسكندرية ويعرف بابن أبى الربيع أحد أولياء الله تعالى شيخ الصالحين صاحب الكرامات المشهورة، جمع بين العلم والعمل والورع والزهد والانقطاع إلى الله تعالى والتخلى عن الناس ، والتمسك بطريقة السلف ، قرأ القرآن ببلده بالقراءات السبع على أبى عبد الله محمد ابن سعادة الشاطبي وغيره ، وقرأ بدمشق على الواسطى وسمع عليه الحديث ورحل فسمع من الزاهد أبى يوسف يعقوب خادم أضياف رسول الله صلى الله عليه وسلم بين قبره ومنبره سنة ٦١٧ ، وسمع بدمشق على أبى القاسم بن صصرى وأبى المعالى بن خضر وأبى الوفا ابن عبد الحق وغيرهم. وانقطع لعبادة الله تعالى فى رباط سوار من الإسكندرية بتربة أبى عبد الله الراسى ، وصنف كتباً حسنة منها كتاب المسلك القريب فى ترتيب الغريب، وكتاب اللمعة الجامعة فى العلوم النافعة، وتفسير القرآن العزيز ، وكتاب شرف المراتب والمنازل فى معرفة العالى فى القراءات والنازل وكتاب المباحث السنية فى شرح الحصرية ، وكتاب الخرقة فى إلباس الخرقة، وكتاب المنهج المفيد فيما يلزم الشيخ والمريد وكتاب النبذ الجلية فى ألفاظ اصطلح عليها الصوفية وكتاب زهر العريش فى تحريم الحشيش وكتاب الأربعين المضية فى الأحاديث النبوية ، ومولده بشاطبة سنة ٥٨٥ ووفاته بالأسكندرية فى رمضان سنة ٦٧٢ ، ودفن بتربة شيخه المجاورة لزاويته رحمهما الله »

ويوم الأربعاء التاسع والعشرين من رجب خرجت أنا والأستاذ الزيات لرؤية جامع الشيخ . وكنت واعدت الشيخ ابراهيم القادرى شيخ التكية القادرية أن أمرّ به صباح هذا اليوم ووعد أن يكلف خازن مكتبة الجامع أن يكون هناك ليطلعنا على خزانة الكتب .

زرنا التكية وصحبنا الشيخ ابراهيم إلى الجامع ، وكنت أسمع بجامع الشيخ وأود أن أراه فلم تتح الفرصة قبل

الجامع مبنى فوق سوق بها حوانيت كثيرة. دخلنا من الباب الخلفى فصعدنا درجاً وملنا ذات اليسار إلى مكتب لتعليم القرآن ، ثم صعدنا درجاً آخر إلى حجرات يسكنها طلاب العلم فى ذلك الجامع . ثم هبطنا من حيث صعدنا فدخلنا إلى جامع واسع فيه مصلّى كبير تحيط به ثلاثة أروقة كبيرة، رواقان مستطيلان عن جانبى القبلة ورواق إلى الشمال كبير يفضى إلى باب المسجد الأمامىّ وقد ألفيت المسجد أوسع وأجل مما حسبت قبلاً

وسرنا فى الرواق الذى إلى يسار القبلة إلى حجرة ، وتقدم شيخ وقور هو إمام المسجد ففتح الغَلَق عن باب يؤدى

إلى حجرة تفضي إلى حجرة أخرى فيها الكتب

سمعت من قبل أن هذه الخزانة أغلقت أربعين عاماً ثم فتحت وقد فعلت الأرضة فعلها بالكتب فأتلفت كثيراً منها . ورأيت بقية الأرضة والإهمال من هذه الكتب مكدسة في رفوفها لا يدري ما فيها . ولعل فيها من نفائس الكتب ما نفتقده في دور الكتب فلا نجده، أو ما نحن في حاجة إليه شديدة لتصحيح ما لدينا من الكتب المخطوطة . ولست أدري على من تقع التبعة فيما أصاب هذه الأسفار من التلف وما هي فيه من ضياع . إن أسرة الشيخ ابراهيم باشا الذي أسس هذا المسجد أسرة عريقة في البر لها أياد على العلم والعلماء . وكانت دورهم مقصد رجال العلم من مصر وغيرها . وكان هذا الجامع معهداً في الاسكندرية قبل إنشاء المعهد الديني التابع للأزهر . فلماذا ترك الخلف من هذه الأسرة سنن السلف وأهملوا آثار آبائهم ؟ وإن كان لوزارة الأوقاف إشراف على هذا الجامع فعليها تبعة عظيمة، وعليها أن تستولي على المسجد ومكتبته أو تلزم القائمين عليهما أن يحسنوا القيام .

لعل كلمتي هذه لا تذهب سدى بين الأوقاف وأسرة الشيخ ابراهيم باشا .

تركنا الجامع إلى مكتبة الاسكندرية في دار موصيري .

وهناك لقينا الأخ الأديب الشيخ بشير الشندي، فأنسنا به وأفدنا من حديثه عن الكتب، وعن آثار الاسكندرية . وقد أطلعنا على رحلة ابن رشيد التي ذكرتها في المقال السابق . وفي المكتبة منها الجزء الثالث وهو المتضمن وصف مصر . وهو منقول عن نسخة في الأسكوريال . وهذه الرحلة ذات جدوى كبيرة في تاريخ مصر ولا سيما الاسكندرية ، وهي جديرة بالعناية والنشر

وكان من حديث الأخ بشير أن قال : أسمعتم عن بئر مسعود ؟ قلنا : نعم هو على ساحل سيدي بشر . قال : لكن مسعود الذي أضيفت إليه البئر ؟ قلنا : لا ندري . قال : عندي حديث عنه لا تجدونه في الكتب. كان شيخنا الشيخ عبد الفتاح شريف والشيخ جاد الحق يذهبان إلى تلك الجهة للرياضة والدرس وكنت أذهب معهما ؛ وكان الشيخان ومن يصحبهما يجلسون على هذه البئر يتمتعون بمنظر البحر وهوائه . وكان فيمن يحضر هذا المجلس رجل ظريف موظف في الجمرك يسمى مسعود أفندي طراطيش فبدا لشيخنا أن يسمي البئر « بئر مسعود » فعرفت بهذا الاسم حتى اليوم قلت: هي فائدة لم يفكر فيها اللاهون حول البئر اليوم

رجعت إلى داري وأنا أتمنى أن تمكن الفرص من بعد لرؤية ما لم نر من مشاهد المدينة العظيمة

عبد الوهاب عزام

شركة مصر للملاحة البحرية

ببواخرها الفاخرة وفنادقها الأنيقة

تسير بكم على بركة الله إلى بيت الله الحرام

وبنك مصر يؤدي لكم جميع الخدمات المصرفية ويتولى عنكم دفع الرسوم

فخذوا أهبتكم للحج هذا العام

جميع الاستعلامات من :

شركة مصر للملاحة البحرية وفروعها